أدب الأطفال: نظرة ثاقبة نحو التربية الإبداعية

أ. فاطمة فؤاد أحمد
كاتبة أطفال

إن التربية الفكرية لأطفالنا تنبع من البيئة المحيطة لهم، ومن ثم كان لزامًا علينا العمل على تهيئة تلك البيئة؛ لكى تتسع وتشمل اختلافاتهم وأفكارهم معًا، وبذات الوقت تكون فى حدود القيم الأخلاقية من أجل تكوين جيلٍ يتمتع بحسّ إبداعى عميق يخلد معه منذ نعومة أظافره.

وما يجوب به أدب الطفل ملىء بعوالم متعددة الفكر والإبداع، وهو يسعى دائمًا لإيجاد نطاقٍ واسع المدى؛ ليرسم خريطة مجتمعٍ جديدٍ يرتقى بأجيال مستقبلية نحو طريق الإبداع.

فإن علاقة الإبداع والأدب علاقة واسعة النطاق تكمن فى كيفية تعميق مبدأ القراءة والاطلاع عند أطفالنا منذ النشأة وتأتى فيما بعد مسئولية تتجسد فى نوعية الأدب المُقدَم لأطفالنا، وكذلك الحال بالنسبة لنوعية الأدب الأجنبى الذى يختاره المترجم. ونحن نتحدث عن الإبداع وأطفالنا لم يكن الأدب وحده وسيلة لخَلْق جيلٍ من المبدعين فى المستقبل، وإنما النوعية المُقَدمة تجعلنا أمام مسئولية كبيرة لتحقيق ما نصبو إليه ككُتاب ومبدعين ومهتمين بخَلْق جيلٍ من المبدعين الصغار، بل تكوين الفكر والتربية الفكرية والإبداعية لهم منذ البداية.

لهذا ينبغى على الأديب المختص بتلك الفئة العمرية من الصغار أن يكون على درايةٍ واسعةٍ بعلم نفس الطفل؛ لأن دائمًا ما كان الأدب يرتقى بنشأة الطفولة من خلال اتباع منهج التربية الإبداعية وما يحتويه بأشكاله المختلفة من أشكال التعبير الفنى بدءًا من الكلمة التى تأتى فى صورة قصة أو رواية أو حكاية أو مسرحية أو قصة تاريخية تستهوى الأطفال وتمتعهم وتحقق المبتغى بتوصيل الرسالة أو القيمة الأخلاقية بطريقة جمالية، ويرجع للقصة التاريخية الموجهة للطفل أنها من نوعية الفنون الإبداعية التى تنمى فيهم الإبداع والإحساس بالجمال وتذوقه.

ويكمن أدب الأطفال أيضًا فى أنه يتيح الفرصة أمامهم لمعرفة الإجابات عن أسئلتهم واستفساراتهم ومحاولتهم الدؤوبة للاستكشاف واستخدام الخيال وحب الاستطلاع لمزيدٍ من المعرفة الحقيقية التى تنمى سمات الإبداع لديه.

وإن حاجتنا لتربية النشء تربية تدعم أواصل المجتمع تربويًا وإبداعيًا؛ لنحقق تنمية فى قدرات التفكير العلمى والإبداعى للأطفال كهدفٍ من أسمى أهداف التربية الشمولية.

ويرجع ذلك الى أن مجتمعنا لن يستطيع أن يفرض نفسه بين الأمم والمجتمعات الأخرى إلا من خلال توعية النشء وتربيته تربية ابتكارية وإبداعية.

ولن يتحقق ذلك إلا من خلال تنمية موارده الاقتصادية وكذلك قيمه الاجتماعية بأساليب علمية، وإتمام ذلك يأتى من خلال عقول أفراد مبتكرين قادرين على مواجهة الأزمات التى تضرب بجذور المجتمع، لذلك أصبح للإبداع مكانة بالغة فى حياة الشعوب التى تتطلع إلى التقدم والازدهار؛ لتحقق واقع أفضل لإيجاد سيناريوهات لتوقعات الأحداث التى ينتظرها الأفراد فى المستقبل.

ويؤدى ذلك لسرعة حل المشكلات وإيجاد حلول فعلية تدعم المجتمع وتقوى بنيانه، بل تسهم فى بناء المجتمع لبنة تلو الأخرى دون تخبط أو إعصار فى المستقبل.

وإن القدرة على الإبداع والابتكار لدى الأطفال تأتى من الثروة اللغوية التى تنشأ لديه من اختلاف اختيار الأدب الجم بمعانيه الجياشة وتذوقه لفروع الأدب المختلفة ومرادفاته المعبرة.

ثم إن التكنولوجيا الحديثة التى جابت المجتمعات وتناقلت من وسائل ترفيهية ووسائل اتصال مختلفة وألعاب للتسلية عبر الشبكة العنكبوتية لم تعتبر بأساس للابتكار والإبداع، لكنها وسائل تنشيطية تغزو أطفالنا وتستهويهم، مع ضرورة التأكيد على أنها ليست بالأساس المتكامل لنشر الابتكار وخَلْق جيلٍ مبدع، ويبقى الكتاب هو الداعم الرئيسى الذى يقدم للطفل مبتغاه نحو طريق الإبداع الحقيقى، وهناك وسائل مختلفة للتحايل عليه لجذبه لحب القراءة والكتاب من خلال الكتب التى يتم تقديمها بطريقة مبتكرة، من أمثلة ذلك التى يتم تحويلها لمجسمات كالقطارات أو العمارات، وأيضًا من أمثلة ذلك كتب منها تعليمية مبتكرة صُممت لجذب الطفل كحفظ الحروف الأبجدية عن طريق تجسيمها.

ويعتبر الأدب فنًا راقيًا من أشكال الفنون المختلفة التى تجذب الصغير نحو عالمٍ ملىء بالخبايا والأسرار التى تجذبه وتشده؛ ليمتزج بذلك العالم ليصبح مألوفًا بالنسبة له ويحرك كل تكوينه الحسى والوجدانى، فتختلط عليه الأمور تارة وتتباين ثم تتكشف له الحقائق فى النهاية، بعد أن يبحث وينقّب ويفكر ويتفاعل مع العمل الإبداعى، ويتصور ويتخيل ويتحقق ويدقق أحيانًا أخرى، وقد لا تعجبه تلك الآراء ليجد نفسه اختار طريقًا غير الذى اختاره الأديب لحكايته أو روايته، وربما يختار عنوانًا آخر وينخرط فى الأحداث ليشكل له حدثًا فى عالمه الخاص به يصر عليه ويتفاعل معه أيضًا ثم يقرر أن ينجذب نحو البطل ويتعاطف معه أحيانًا، وربما لا يتعاطف فى أحيانٍ أخرى ويتقلب مع الأحداث فى بوتقةٍ واحدة فيجنح بخياله المتسع الخصب.

فالأدب، مقروء أو مسموع أو مرئى من خلال وسائط تقديم الفنون الأدبية يتفاعل، معه الطفل ويترك اثرًا وجدانيًا وسلوكيًا وعقليًا فيؤثر فيه ويتأثر به ويساعد على نموه، ويُعد أدب الأطفال بمثابة التكوين الفكرى والإبداعى الأمثل للعقل البشرى بالنسبة للأجيال القادمة، فمن أجل أن ترتقى المجتمعات لا بد من الاهتمام الجاد الذى لا يقيد حرية الصغار؛ ليفتح لهم آفاقًا على عالمٍ آخر ملىء بالوعى الفكرى والتربية العقلية المبدعة التى تحقق لنا مبدأ من مبادئ التوعية المختلطة بروح الإبداع والتفكير والابتكار، فلم تكن الأنشطة التى يمارسها الصغار وحدها كفيلة بأن تحقق النهوض بالتربية الفكرية والإبداعية ذاتها، وإنما الوصف الحقيقى لإيجاد جيلٍ يُعتمَد عليه ويحقق الشمولية الفكرية والإبداعية ويرتقى ببناء المجتمع بناءً جديدًا بل بناءً ابتكاريًا بمضامين ترفعه نحو أطر مستقبلية ومعرفية شامخة جاذبة للاستثمار البشرى، ومن خلال جيلٍ جديدٍ يعتمد على الوعى والابتكار فى كل شىءٍ ويُعد ثروة بشرية حقيقية.

وينبع ذلك برعاية الصغار رعاية ابتكارية إبداعية خلّاقة نحو تربيةٍ طموحةٍ تحتم على المؤسسات المختلفة أن ترعى وتتبنى تلك الأفكار لتتضافر الجهود بأكملها، فلم يكن يقع العاتق فقط على الحكومات والدول فى تبنى تلك الفكرة لخَلْق جيل من المبدعين إنما يتطلب ذلك وعيًا مجتمعيًّا وشموليًا أيضًا، حتى تلتقى الجهود فى كل الاتجاهات من مؤسسات ودور رعاية وجمعيات تبرز دور المجتمع المدنى، ويتطلب مع ذلك كله جهدًا أسريًّا مشتركًا مع المؤسسات؛ حتى تكتمل أركان البناء نحو التطوير الأساسى الذى ينبع من التقاء كل هذه الجهود معًا.

فلم يكن أدب الأطفال وحده يحقق مبتغاه بالصورة التى تليق بالمجتمعات إلا اذا كانت البيئة المحيطة بأكملها داعمة له، فإذا كنا بصدد موضوعٍ فى غاية الأهمية ويحتاج إلى دراساتٍ وبحوثٍ من أجل التعمق أكثر، فإننا لا بد وأن نلتفتَ لنوعية الأدب المقدم أيضًا لكل

فئةٍ عمرية تحتاج إلى تحقيق أكبر منفعة ابتكارية وإبداعية، وإن كان الأديب فى ذاته مبدعًا فهو يستطيع أن يحقق من خلال ما يقدم جيلاً نفخر به، بل أجيالاً يستطيع أن يفخر بها مجتمعه والمجتمعات الأخرى، فنحن لا ننظر إلى الأدب نظرة ضئيلة أو إلى الأديب نفسه وما يقدمه، بل إننا نعلى من شأن الأدب والأدباء بصوره المتعددة وفنونه المختلفة، وأدب الأطفال بالأخص الذى نحن بصدد الحديث عنه أنه فى اعتقادى الشخصى ما يحققه الأدباء فى عالمنا المعاصر هو طور من التقدم.

ودليل ذلك ما وصل إليه أدباء الخيال العلمى من توقعاتٍ أصبحت الآن حقيقة ملموسة وواقع نعيشه، وإن كان الأدب يحث الأجيال على متسعٍ من الخيال فإن ذلك يستدعى عندهم مَلَكَات كثيرة فى تفاعلهم مع ما يُقَدم وتصوراتهم التى تبنِّى على توقعاتٍ ملموسة من خلال ما تم تقديمه، بل يخترق واقعهم أيضًا لأبعد من ذلك؛ حتى يتسرب بداخلهم ليحقق نوعًا من الابتكار المكنون الذى يصل بنا إلى ما يحققه أدب الأطفال وما يقدم مبدأ مترسخ فى إعمال العقل والتفكر حتى يختلط ويمتزج بروح الإبداع والابتكار التى تتربى عليها تلك الأجيال.

فنستطيع أن نجزم أن الفنون الإبداعية التى يقدمها المبدعون من شعرٍ أو قصةٍ أو فنٍّ تشكيلى، كل هذه فنون إبداعية تحقق جيلاً مبتكرًا بل مبدعًا يسمو ويرتقى بالعقول حتى يحقق مجتمعًا متقدمًا، وإن كان أدب الأطفال أدبًا موجهًا لفئة الصغار فهو يُعد من أرقى أنواع الأدب وأكثرها حساسية؛ لأنه يربى عقولاً لأجيالٍ تتطلع إليها المجتمعات فى الغد القريب، بل ويتدخل فى معتقدات ووعى فئة عمرية من أخطر ما تكون، لذلك كانت المسئولية التى تقع عليه هى مسئولية صعبة للغاية ليس فقط فى تحقيق الرسالة السامية التى يصبو إليها كل أديب بما يقدمه فقط، بل فى تحقيق ما هو أكثر من ذلك.

لم تكن الأخلاقيات والمُثل التى تُقَدم فقط بمثابة طورٍ مهمٍ من أطر ذلك الأدب، بل إن كان فى المقدمة فلا بد أن يحقق الأدب بجانب ذلك أصولاً من أصول الابتكار والتفكير الإبداعى؛ لأن المنطق الذى يصور لنا جيلاً بأكمله يخبرنا أننا بحاجةٍ ماسة لوجود الإبداع والابتكار بجانب الرسالة المبدئية فى أصول أدب الأطفال من تعاليم ومفاهيم صحيحة يحققها من خلال ما يُقَدم.

ويظل أدب الأطفال إطلالة من الفنون الإبداعية التى ترسخ قوى من القوى الداعمة للمجتمع، حيث إن قوة الأدب وتقدمه أدعى لتقدم الأمم ورقيها، ولا ننكر فضل الأدب والأدباء بمختلف فنونه؛ فهناك عصور زاخرة مرت بالأدب وتمثلت فى الأدباء الذين ساهموا فى بناء المجتمعات وتقدمها، من أمثلتهم:

إحسان عبد القدوس - يحيى حقى - نجيب محفوظ - نهاد شريف - يوسف إدريس والسباعى... والكثير من الأدباء الذين أثروا الحياة الأدبية والثقافية فى مصر والعالم العربى. وأهم ما ميز تلك الحقبة الزمنية أن الأدباء كان لهم دراسات أخرى ومقالات سياسية واجتماعية ونتاج فكرى متنوع، وبرز ذلك فى أدب كلٍّ من: العقاد، طه حسين، محمد حسنين هيكل إلى جوار توفيق الحكيم وغيره؛ فلقد حققوا لنا تطويرًا مجتمعيًا ملموسًا، ويتمثل ذلك فى فوز أديبنا نجيب محفوظ بجائزة نوبل بالأدب كأول أديبٍ عربى مصرى يفوز بتلك الجائزة، وذلك لم يكن تتويجًا لأدب نجيب محفوظ فحسب، بل كان تتويجًا لأدب ذلك العصر بصفةٍ عامة.

وإن الأدب - فى مجمله العام - يستطيع أن يعمق جيلاً من الأدباء، ويخرج من عباءته أجيالاً من الأدباء المميزين والمبدعين، فإن الأديب بصفةٍ عامة ما دام يتمتع بفكرٍ مميزٍ وقلمٍ مبدعٍ أيضًا يستطيع أن يكتب للصغار وليس للكبار فحسب ويبدع من أجلهم، ولا نستطيع أن ننكر فضل أدباء الأطفال من القدامى والرواد، **ومن أمثلتهم:**

كامل كيلانى - محمد الهراوى - أحمد نجيب - أحمد شوقى فى ديوانه للأطفال - يعقوب الشارونى - عبد التواب يوسف.

وإن كان لكل منهم أدبه الخاص به وعالمه أيضًا إلا إنهم اجتمعوا على نشأة جيلٍ من المبدعين والمساهمة فى تربية النشء تربية سليمة، تحقق ذلك من خلال ما قدموه طيلة السنوات الماضية، لنخلص إلى أن الأدباء والأدب فى حد ذاته قوى من القوى العملاقة، لنعيد التأكيد مرارًا أن تلك القوى تسهم فى تغيير الأمم تغييرًا جذريًا عميقًا يحقق لها عزتها ورقيها ويجعلها فى المقدمة على خريطة التقدم وفى طريق الازدهار، ليتحقق لها الريادة فى المستقبل.